

ورقة عمل مقدمة للمؤتمر السنوي الثاني المزمع عقده في 17 و18 كانون الثاني يناير 2013، تحت عنوان "التجمعات الفلسطينية وتمثالاتها ومستقبل القضية الفلسطينية".

الهوية الاجتماعية الفلسطينية: تمثالاتها المتشظية وتداخلاتها المتعددة

د.أباهر السقا¹

asakka@birzeit.edu

ملخص:

تدرس هذه الورقة تأثيرات واقع التجزئة وأزمة المشروع الوطني على التمثالات الاجتماعية للهوية، داخل الوطن وفي الشتات مثل مظاهر الهوية/المناطقية (الضفة، قطاع غزة، القدس، فلسطين 1948). وكذلك التقسيمات الأكثر تفرعا شمال الضفة ووسطها و التمايزات التراتبية (هوية إسرائيلية، هوية مقدسية، هوية سلطة الخ.). والتمايزات الثقافية/الاجتماعية (مدينة، ريف، مخيم، عائد، مقيم)، واستحضار المؤسسات التقليدية (الحمولة والعشيرة) لتتقمص لروح المؤسسات الحديثة ولتشكل مرجعية الأمن الاجتماعي للأفراد. وفحص واقع التجزئة والانقسام والثقافة الفصائلية وسياسات الاستعمار(الاحتلال) وكذلك دور مسار أو سلو في نشوء هذه المظاهر التي تتجاوز الخصائص الطبيعية المرتبطة بشروط المكان، وغير ذلك من شيوع مظاهر ضعف النسيج المجتمعي، على حساب الهوية الفلسطينية وتمثالاتها الجمعية المشتركة. وتحاول الورقة تقديم بعض السياسات الهوية التي قد تعزز تماسك نسيج المجتمع وهويته الاجتماعية وعلاقتها بتمثالات الهوية الوطنية والثقافية، والمشروع الوطني الجمعي؟ ضمن مشروع يقوم على صيانة الاختلاف والتعددية في التجانس لا التماثل.

توطئة:

تعرف الهوية باللغة العربية بأنها: "حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره"² وهناك استخدام دولتي جديد مرتبط بجدائه نظام التسجيل المدني يعطى للهوية معنى آخر وهو "البطاقة"، وهو الاستخدام الأكثر شيوعا في الحس المشترك الفلسطيني لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس. أما في المرجعيات الانجلوساكسونية فيحدد قاموس أكسفورد الهوية باعتبارها "حالة الكينونة المتطابقة بإحكام، والمتماثلة إلى حدّ التطابق التام أو التشابه المطلق" في حين يرى معجم روبري الفرنسي أنها "الميزة الثابتة في الذات". الهوية الاجتماعية هي اذن رديف الانتماء إلى فئة اجتماعية معينة. وعليه فان تماثل الهوية هو تكييف اجتماعي للفرد داخل المجموعة، لكن يوجد أيضا عملية "تمايز" وهي يتمايز بها الفرد عن الآخرين ويتخلق بصفات خاصة به، ويحاول أن يؤثر بمشاريه على محيطه الاجتماعي.

إذن الهوية الاجتماعية لا تظهر على أنها انعكاس بسيط أو تجميع في ضمير الفرد وانتمائه وفي أدواره الاجتماعية: بل إنها كلّ ديناميكي تتفاعل جميع عناصره في تكاملية أو في صراع. وهي تنتج عن "استراتيجيات إنتمائية"؛ يحاول الفرد من خلالها الدفاع عن وجوده ورؤيته

¹ أباهر السقا، رئيس دائرة العلوم الاجتماعية والسلوكية، حامل لشهادة الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة نانت- فرنسا. حريج المدرسة العليا لإدارة التنظيمات الاجتماعية -سانت تيتيان- فرنسا. عمل كمحاضر في جامعة نانت من 1998-2006 وزميلة باحثا في المعهد الفرنسي لدراسات التنمية، وأستاذ زائرا في العديد من الجامعات الفرنسية، وعضو مركز نانت للدراسات السوسولوجية. له العديد من الدراسات والمقالات العلمية.

² المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط3، 1998.

الاجتماعية، ودججه في المتحد، وفي الوقت نفسه يقوم ذاته ويبحث عن تماسكه المنطقي الخاص به. هوية المجموعة هي إداً رمز وتجسيد اجتماعي مبني، ومتعلق بالمتخيل أكثر منه طابع لواقع موضوعي؛ إنه تجسيد وإبراز، تصوّر من خلاله مجموعة ما وحدتها بالتمايز عن الآخرين، وتشكل فئة متماثلة محققة ذاتها، وتصنيفها وتمايزها، وحيث يتم ذلك بوجودها ذاته³.

الشعور بالهوية ليس معطى أولي في الوعي الفردي، بل هو حصيلة آلية اجتماعية متداخلة متواصلة وهي عملية بناء اجتماعي بامتياز. فكل هوية تُبنى وتُحدّد بالنسبة إلى هويات أخرى. وهذه العلاقة مصنوعة من حركات استيعاب وتمثّل (يصبح بواسطتها الفرد أو الفرد/المجتمع ممثلاً لغيره) ومن حركات تمايزية (بما يؤكد خصوصيته تجاه الآخرين)⁴. هذه المجموعات الاجتماعية ليست منعزلة فهي تقيم علاقات مع مجموعات أخرى. يعتقد ليفي شتراوس⁵ ان الهوية مقرا افتراضيا لا يوجد بصفته هدفا محققا لكننا نؤمن به ونحتاج إلى التعبير عنه بوصفنا فاعلين يتعلمون لنعيش وننشط مع الآخرين. ولذا فإنّ عملية توكيد الهوية ليس فقط إظهار وانعكاس للتجانس الاجتماعي لمجموعة ما، بل أيضاً إحدى الوسائل التي تحاول المجموعة أن تبني وحدتها بما وتبني حدوداً اجتماعية بينها وبين مجموعات أخرى. وكلمة "حدود"، هنا تعني أنّ لكل مجموعة بشرية حدود تصنعها لنفسها، وليست بالضرورة حدوداً جغرافية، لكنها بالأساس حدود رمزية، وعندما نقول رمزية فهذا يعني حدوداً في التاريخ، في العلاقة بالذاكرة، وباللغة، بالكلمات، بالتصورات الذهنية المتبادلة⁶. وهذه الحدود ليست ثابتة، فهي تضيق وتتسع وتتغير وتتبدل حسب السياق. وتكون كل مجموعة اجتماعية صوراً عنها "إيجابية" و"سلبية"، إما للتناقض أو التعارض، المرتبط أو الملازم لتكوين المجموعة، يعبر عنه بنسب صفات سلبية للهوية الأخرى. ففي الواقع لا تحدّد الهوية فقط بمجموع السمات الإيجابية (والتي يقترحها المجموع كمثال) بل أيضاً بسمات سلبية من خلالها يتعلم الفرد مسبقاً ما يجب عليه أن يتجنبه. وبذلك تبدو الهوية نظاماً ديناميكياً⁷ مزدوجاً ونحن نعتمد في تحليلنا على تحيّل الهوية ضمن شكل تفاعلي دينامي وليس تصادمي، ونستعير من كلود دوبار⁸ تعبير "الهويات التطويعية" والتي تفترض وجود هويات متعدّدة ومتبدّلة وسريعة الزوال.

³ Edmond Marc Lipiansky, identité et communication, Broche, paris, 2005. ونشرت في مجلة تحولات، في العدد 6 2005.

⁴ المصدر السابق.

⁵ Levi-strauss, Claude, Identité : seminaire de college de France, PUF, Qaudriage, 1977.

⁶ لا بدّ من تمييز إيجابيّ لفائدة السود في المجتمعات العربية، 2009، حوار ل محمد الجولي مع عادل الحاج سالم مجلة الوان.

⁷ آدموند ليبانسكري، مصدر سبق ذكره.

⁸ Dubar, Claude. 2000. la crise des identités l'interprétation d'une mutation ; le lien social. Paris: press universitaires de France.

⁵ Weber, Max. 1971. Economie et Société. Paris: Plon social. Paris: press universitaires de France.

في الحالة الفلسطينية كانت الهوية ولم تزل محل سجل الهوية من حيث آليات تكوينها ونمطها وأشكال التعبير عنها وذلك للعناصر التالية: - أولاً: بسبب خطى التكوين التاريخي المرتبط بولادة القوميات في المشرق العربي في مرحلة الاستعمار والإنعتاق منه فيما بعد. وثانياً: تأثرها بآليات نقل الدولة- الأمة (State-Nation)/(Etat-Nation)؛ وتشكل الدولة الحديثة والتي تم تعميمها على الكرة الأرضية و تجذير تعميمها بدءاً من عام 1945 كأ نموذج دولتي للإشكال السياسية في العالم. وثالثاً: لان الوطنية الفلسطينية هي نتاج لعملية تاريخية مرتبطة بالسياق الفلسطيني من صعود الوطنيات/ القوميات ما بعد الخلافة العثمانية؛ مروراً بالاستعمار البريطاني (الانتداب) وصعود القومية العربية والتي جاءت كمحاكاة للوطنية التركية والتي هي بدورها أيضاً كمحاكاة لحركتي الفتاة الإيطالية والألمانية والأوربية الأخرى⁹. ورابعاً: التصارع مع المشروع الاستعماري الصهيوني/ الاستعماري والذي سرّع بتنمية الشعور بالفلسطنة. (يجب التنويه هنا أننا ضد الحجة التي تربط ولادة الهوية الفلسطينية بالمشروع الصهيوني). بل هو خلاصة للعوامل سابقة الذكر. ونعتقد أنّ الهوية لديها مقارنتان: تقوم الأولى على الذكر الجماعية باعتبارها صانعة للهوية مع المحددات الأخرى، أي القواسم المشتركة: (اللغة والعادات والتقاليد وحدة المصير في "القضية الوطنية" الخ). وأما المقاربة الثانية فتري أن الهوية ككل، تقوم على الاختلاف بين جماعات اجتماعية، وعلى قاعدة إعلان ذاتي للأفراد المكونين لهذه الهوية وانتمائهم وهنا نستعير تصوّر فيبر¹⁰: الذي يرى أنّ الهوية هي إحساس وشعور معن، للانتماء لجماعة اجتماعية مقارنة بجماعة اجتماعية أخرى، مختلفة أو متميزة داخل نفس الجسم الاجتماعي، والتي تتطلب من أفرادها الإعلان عن هويات اجتماعية مغايرة.

تداخلات الهوية الفلسطينية

أما تماثلها فقد جرى تمازج في الهوية وتراتبها بمعنى جلنر¹¹، أي تداخلت الهويات من خلال عملية تاريخية مزجت بين المحلية والوطنية¹² والقومية (العربية) والدينية (الإسلامية والمسيحية) والعالمية (الكويتية). وعليه فإن الهوية تعني مجموعة من التراتبات المتغيرة حسب السياق وهي لا تعني التماثل، وأن خصوصية الهويات الاجتماعية لا يلغى المشترك، ونستذكر فيبر هنا مجدداً، فهو يعرف الهوية كشعور مأسس على تصور ذاتي لنفس الكل الاجتماعي، والتي تجعل الوجود الاجتماعي نفسه يقوم على تمايز واضح، ويرافق ذلك تحيل مجموعة لأخرى وفق آليات نمطية للأفراد لأنفسهم، بصور "إيجابية" وصور "سلبية". الهوية بمعنى فيبر "الشعور بالقاسم المشترك كبناء اجتماعي" وليست حالة "طبيعية" هذا الشعور بالانتماء المرتبطة بتمثلات خاصة مرتبطة (منظومات قيم، عادات، أشكال للفعل) بما يسميه بورديو¹³ الهايتوس "القواعد المولدة". بمعنى أن الهوية لا يشعر بها ولا تتمثل إلا عند إدراك الفاعل الاجتماعي بانتمائه لفئة اجتماعية محددة، تستحضر عناصر محددة مستبطنة وتستبعد عناصر أخرى. هذه القواسم المشتركة (العادات والتقاليد) لا تكفي وحدها لصناعة الهوية وذلك لان الهوية

⁹ HOBBSAWM Eric, Nations and Nationalism since 1870. Myth, Reality, Cambridge, Cambridge University Press, 1990.

¹¹ Gellner, Ernest. 1983. Nations and Nationalism, Oxford, Blackwell.

¹² Khalidi, Rashid. 1997. Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness, New York, Columbia University Press.

¹³ Bourdieu, Pierre. 1981. La représentation politique : éléments pour une théorie du champ politique, Actes de la recherche en sciences sociales, n° 36-37, février-mars.

متغيرة ومتبدلة وكأى وطنية يتم التركيز عليها باعتبارها وعاءا شاملا يضع داخله الوحدة من خلال التنوع لا التماثل. ونستحضر هنا موران¹⁴ الذي يعتقد أن ولادة الوطنية تسبق ولادة الدولة. فالأشكال الهوياتية الاجتماعية ما قبل الدولاتية تتعايش مع الإشكال الهوياتية ما بعد الدولاتية ولا تتناقض معها إلا في التمثلات الدولاتية التي ترى أن الهوية الوطنية تقوم على التشابه والتماثل. وعليه فإن المحلية (الانتماء للحارة وللقرية وللناحية وللجهة، تداخلت مع الوطنية (فلسطين) "الانتماءية/التاريخية" والقومية (العربية) والتي تتعايش مع بعضها البعض مع الانتماءات العائلية والعشائرية والطائفية/المذهبية الدينية. وتحديدًا فيما يخص إدارة الاجتماعى، التأثير على سياسات الهوية، وعلى تمثلات الافراد وهوياتهم. ولكنها قد تؤثر على الشعور بالمواطنة التي تسمو عن الانتماءات الخاصة لصالح الانتماءات العامة والتي تعود للظهور والتوكيد عليها أثناء أزمة دولة أو أزمة مشروع اجتماعي، أو أزمة نظم اجتماعية تمارس التمييز الاجتماعى لصالح شرائح أو فئات اجتماعية محددة بعينها على حساب شرائح أخرى. وسنحاول أن نفحص هذه الفرضية في دراستنا هذه.

وطنة الهوية الفلسطينية

تغيرت الولاءات الفلسطينية حسب السياق، فكما هو معروف تاريخيا منذ الإعلانات الأولى تأرجحت الإعلانات الهوياتية ما بين اعتبارات مختلفة (فلسطين كجزء من سوريا الكبرى، فلسطين الجنوبية،...) مرورًا بالثلاثينات (ثورة 1936) والتي لعبت دورا أساسيا في تجذير الوطنية الناشئة، حيث صُهرت مجموعات اجتماعية في الثورة حتى وان لم تتخرط بكافة الشرائح الاجتماعية ولكنه أسس لخطاب وطني جديد يقوم على فكرة المقاومة لمشروع مضاد وألا هو المشروع الاستعماري الصهيوني. وبدأ الخطاب الوطني بتبني هوية وطنية تميز بين العروبة والإسلام وباستحياء "الفلسطنة"، وكما هو الحال لخطابات وطنية أخرى والتي بطبيعتها تحمل طابعا مصطنعا¹⁵. وكما هو معروف في انه وفي حالة التشريط الاستعماري بمعنى فانون¹⁶ فان تبنى هوية وطنية تحدث تغييرات جذرية على المستوى العاطفي الوجداني والنفسي والذاتي. وهذا الشعور بالهوية مرتبط بتراتبات اجتماعية متغيرة، هذا التنوع التراتبي يعطى الأفراد الليونة بإظهار ولاءات لتحل أخرى، وهذا يظهر لنا أن الهوية ليست بناءا جامدا يتم فرضه على الآخرين من خلال توجيهات أيديولوجية، أو توجيهات دولاتية، لان ثمة استعارات، محاكاة، تتداخل لتحدث هذا الشكل.

يقول نوريل¹⁷ أن الهوية تتشظى عندما يقدمها خطاب ما على أنها مهددة؛ وفي السياق الفلسطيني يظهر لنا كذلك من خلال وجود هوية "وطنية" أخرى كالصهيونية والتي تنافست معها الوطنية الفلسطينية الناشئة. واستمرت هذه السياسات الهوياتية الفلسطينية الجديدة تتأرجح إلى وقت النكبة والتي كانت حدثا مؤسسا في ميلاد الوطنية الفلسطينية وفي الهوية وفي "الوعي الوطني الفلسطيني" ولم تزل (كما سنحاول

¹⁴ MORIN, Edgar. 1984. Sociologie, Paris, Fayard.

¹⁵ Eric J. Hobsbawm, Terence O. Ranger (eds.), The Invention of Traditions, Cambridge, Cambridge University Press, 1983 ; GELLNER Ernest, Nations and Nationalism, Oxford, Blackwell, 1983 ; HOBBSAWM Eric, Nations and Nationalism since 1870. Program, Myth, Reality, Cambridge, Cambridge University Press, 1990, p. 14 ; Anthony Smith, The Ethnic Origin of Nations, Oxford, Blackwell, 1986 ; NORA Pierre (dir.), Les lieux de mémoire, 7 vol., Paris, Gallimard, 1984-1992. ANDERSON Benedict, L'imaginaire national. Réflexions sur l'origine et l'essor du nationalisme, Paris : La Découverte, 1996 (1ère édit., Imagined Communities, Londres, Verso, 1983).

¹²FANON, Frantz. 1968. Les damnés de la terre, Paris, Gallimard.

¹⁷NOIRIEL, Gérard. 2001. Etat nation et immigration, vers une histoire du pouvoir, Paris, Belin.

الشرح فيما بعد). ومن بعدها الحدث الثاني وهو هزيمة 1967. ثم تلاها صعود تيار الفلسطنة الذي حول وطننة الهوية الفلسطينية؛ حيث أن المخيال الوطني يحتاج عادة الى "وطننة الفضاء الاجتماعي" (أدلجة وطنية، مأسسة وطنية، ثنائيات استنهاض التراث والتقليد، و"مرجعيات القانون الدولي بمرحلة متأخرة")، و الى التغيرات الهويةانية؛ وتفعيل الذاكرة الجمعية حول أماكن الذاكرة بمعنى نورا¹⁸ حيث حولت الأرض كفاعل أساسي في الذاكرة الجمعية الفلسطينية باعتبارها المرجعية الجغرافية والثقافية والتاريخية إضافة لاعتبارها كوحدة القياس الاجتماعية والاقتصادية والتي كان يقوم عليها المجتمع الفلسطيني والتي تم تدمير بناه مع النكبة. وقامت تيارات "الفلسطنة" بتخيلات مختلفة للذات وللتاريخ؛ وهي مرتبطة بشكل أساسي بالخطاب الوطني المعاصر الذي قادته حركة فتح وخاصة تيار عرفات بصناعة هوية جديدة كما فعلت الهويات الأخرى¹⁹ في العالم؛ وذلك عبر عملية إعادة تملك التاريخ القديم كتاريخ الكنعانيين والتواريخ القديمة للتوكيد على الاستمرارية التاريخية و("الامتدادات الحضارية" الخ)؛ وكما فعلت الخطابات الدولاتية الحديثة في مصر وتونس ولبنان (فيما يتعلق بالرواية عن الفينيقين والفرعنة.. الخ) ولكن بشكل اقل حضورا بسبب غياب البنى الدولاتية وطبيعة الصراع مع الاستعمار "الاسرائيلي" والتي تتطلب عمقا عربيا مما ابقاها اقل تجذرا من فكرة العروبة نفسها.

في الحالة الفلسطينية كان هذا يحدث بالتزامن مع استحضار النكبة كحدث مؤسس و استحضرت أيولوجيات العودة والنضال المسلح كهويات مؤسسة في الوعي الوطني المستعمر والتي تتماهى مع كل تجارب المَسْتَعْمَرين؛ في حين الان و من باب المفارقة يتم التخلي عنها تدريجيا لصالح خطاب قانوني يرتكز على "مشروعية القانون الدولي". اذن هذه الهوية الاجتماعية الجديدة قامت على فكرة العودة إلى المكان الأول ما قبل الاقتلاع/ النكبة للقرية والبلد الاصلى؛ ولعبت دورا هائلا مؤسسا لجيل كامل استحضرت التراث ورموزه والتقاليد بدءا من التعامل مع اللباس والمأكل الفلسطيني كهوية تدلل على الاستمرارية الاجتماعية وعلى سبيل المثال تم استحضار الأنواب الفلاحية الفلسطينية وتحويلها إلى أشكال وطنية هوياتية جديدة قبل أن تنحو في بعض أشكال تعبيراتها إلى المتحفية. كجزء من سياسات الهوية التي عملت على وطننة هوية الناس حتى وان حمل تشويها حيث أن الثوب الفلسطيني هو لباسا قرويا بامتياز تحول ما بعد النكبة ليصبح تراثا وطنيا وعلامة فارقة في الهوية الوطنية والتي أذابت الخصوصيات الاجتماعية للمكونات الاجتماعية الأخرى وتحديدًا المدنية منها والتي لم تعرف الثوب المطرز كالقدس والناصرة وغزة ونابلس الخ؛ وقد دُججت كل العناصر سابقة الذكر وأخرى بهوية جديدة قدمت مطولا بالخطاب السياسي الفلسطيني الحديث على أنها الوعي الوطني الفلسطيني.

الهويات العائلية والحمائلية والعشائرية

رغم إدعاء الحركة الوطنية الفلسطينية بالقضاء على الولاءات العشائرية لصالح ولاء اسمي وهو الولاء الوطني ما فوق الحمائلي والعشائري، الا أن تأثيرها الفعلي بقي محدودا؛ بل متناقضا في حالات كثيرة وعلى العكس تماما فان جزء من القيادات الفلسطينية عززتها وأبقت عليها، لأسباب مختلفة منها: ان العائلة بقيت كوحدة أساسية للقياس وكهوية اجتماعية تجمع الأفراد حولها، فقد كانت العائلة تشكل الوحدة

¹⁸ NORA, Pierre. 1992. Les lieux de mémoire, Paris, Gallimard.

¹⁹ كما فعلت الهويات الأخرى التي يتم تحويلها في بعض تصورات الحس المشترك الذي أنتجته تيارات الثقافة المركزية الأوربية أن ثمة أمم لديها هويات متحدرة وأخرى أقل تجذرا وخاصة دول ما بعد الاستقلال في مراحل التحرر من الاستعمار. إنتاج هوياتها مستلما تجارب الدولة الأمة التي صنعها تعميم نموذج الدولة-الأمة والذي أصبح عالميا. في حين أن الدراسات الحديثة ترى أن كل الأمم قامت بصناعة هويات تملك التاريخ والهويات القديمة، انظر: كتابات نوريل وأندرسون وآخرون، عن الحالات الفرنسية و الألمانية.

الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الفلسطيني ووحدة القياس الاجتماعي بالمعنى السوسيولوجي، ووحدة انتاجية واستهلاكية، او حجر الزاوية في البناء الاجتماعي بمعنى ابن خلدون²⁰. صحيح أن الراهنية/ الحداثة حدثت مؤسسات اجتماعية جديدة نافست مؤسسة العائلة، ولكن مع ذلك ونتيجة لضعف المؤسسات الجديدة بقي للعائلة قيمتها كوحدة ارتكاز و كمصدر للأمن الاجتماعي، بل أن بعض القادة الفلسطينيين حافظوا على علاقات مع ممثلين عن العائلات و"اعيان المدن"؛ وبل تم تبني سياسات تحفيز عائلية، وأبقت مراكز صنع القرارات في الهيئات الفلسطينية على عملية تعيينهم وفق هذه الحسابات العائلية وهمشت المعايير الاخرى وإن ابقت عليها على مستوى طلب المشروعات الثورية والنضالية الخ. كما حاول الاستعمار الاستفادة من هذه التصنيفات، حيث تُظهر قراءتنا لجزء من التاريخ الاجتماعي للعائلات أن هناك عوامل خارجية أيضا لعبت دورا ببقاء هذا الدور حيث تم رفع شأن بعض العائلات أو تم الحط من شأن أخريات؛ ويظهر هذا جليا في الحقب: العثمانية والانتدابية والأردنية / المصرية والإسرائيلية؛ وحتى في ظل السلطة الفلسطينية حيث قامت الأخيرة بتعزيز العشائرية من خلال على سبيل المثال إنشاء دائرة العشائر بوزارة الداخلية. وكذلك كان الحال من قبل؛ فمنظمة التحرير لم تعمل على تهميش العائلات رغم ادعائها بذلك وعلى الرغم أن جزءا كبيرا من قادة الفصائل وقواعدهم الشعبية لا تنتمي لشرائح العائلات الكبيرة "العريقة". ومع ذلك بقيت العائلة تمثل مرجعية هوياتية هامة. ورغم الادعاءات المختلفة فلا توجد إشارات من قبل السلطة الفلسطينية عن أي رغبة بتغيير هذه الأنماط العلائقية التي تبقى على ظواهر الاستزلام²¹ و تبقى أيضا على الولاءات الأولية والعصبية العائلية. بل على العكس نجد تجليات هذا على العكس في نمط التعيينات في الوزارات وتشكيل الحكومات، وبقاء قوة استخدام القضاء العشائري و"مقاعد الصلحة". والاهم أن هذه الأنماط تتعايش مع بعضها البعض إن لم تكن تُنافس مؤسسات الشرطة والمؤسسات الأمنية في كثير من الأحيان، و يتعايش العرف مع القانون بل قد تكون له الغلبة فيما يخص الإرث ومشاكل "الشرف" والنزاعات اليومية. وما زالت الجرائد الفلسطينية اليومية تعج (بصصك) "العطوات والصلح العشائرية"، وإعلانات المساندة العائلية او التهئة للعائلات والحمايل لكل ما له تجليات له علاقة بالولاءات، وإعلانات التأييد وتجديد البيعة، تعيينات، تسميات، تخرج، زواج الخ. ولذا فان العائلة تعتبر أيضا أداة من أدوات المراقبة والسيطرة بالمعنى الفوكوي والتي حاولت السلطة الفلسطينية استخدامها لتسهيل عملية تطبيع المجتمع الفلسطيني الذي بقي دون سلطة دولاية لسنوات طويلة؛ والاستعانة بها لتوسيع دائرة الولاءات لها. وقد حافظت الأنماط الاجتماعية التقليدية على العائلة باعتبارها أداة نقل للأمر الاجتماعي، وأداة عابرة للأجيال وخاصة فيما يخص الهويات الجمعية للفلسطينيين وتناقلهم للسرديات الكبرى الجمعية؛ وللرويات الفردية للمهجرين والمقتبلين من أراضيهم. وبقيت العائلة تمثل للكثيرين الأمن الاجتماعي، وشبكة العلاقات الاجتماعية للحماية رغم تنافسها مع المؤسسات الدولاية الحديثة. ونلاحظ أيضا أن العائلة تقمصت روح المؤسسة الحديثة²² ويرى الكثيرين أن العائلة حاضرة في العلاقات الاجتماعية داخل الأحزاب وبعض المؤسسات وكذلك يظهر ذلك في هذه الهويات الفرعية في نتائج الانتخابات في 2006 وفي الانتخابات البلدية الأخيرة 2012. سوسيولوجيا تحتاج كل مجموعة اجتماعية الى عصبية بالمعنى الخلدوني أي الى تضامن في جسد اجتماعي، والعائلة في ظل غياب رابط جامع يلغى التمايزات ويؤسس على اعتبارات أخرى غير الأندثار العائلي تبقى العائلة مخرجا للكثيرين من الأفراد وأداة من أدوات الرساميل بمنطق بورديو الاجتماعية التي تمنح الأفراد ميزات وقدرات تواصلية وبل لشبكات اجتماعية تسهل على الأفراد صعودهم وظهورهم الاجتماعي.

²⁰ ابن خلدون، المقدمة، دار سيلدار، تونس. 2006.

²¹ لمزيد انظر هلال جميل، النظام السياسي بعد اوسلو، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، رام الله، 1998.

²² لمزيد انظر هلال، جميل، الطبقة الوسطى الفلسطينية، بحث في فوضى الهوية والمرجعية والثقافة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2006.

أما المكون المتداخل الثاني الذي يشكل أحد عناصر الهوية الاجتماعية هي الانحيازات المناطقية والاعتزاز الجهوي وشبكة العلاقات المناطقية والجهوية والتي تعمل وفق منظومة متخيلة من الاعتبارات الاجتماعية والتي تمارس في ظل غياب سياسات هوياتية تدمج الجميع بغض النظر عن منطقتهم حيث كان لعزل المكونات الاجتماعية الفلسطينية عن بعضها البعض في كل من الضفة الغربية والقدس وبين الضفة الغربية وقطاع غزة وبين الضفة الغربية وقطاع غزة وفلسطين 1948 وبين الثلاث المكونات و التجمعات الشتاتية أثرا بالغا على تمركز المحلية وخاصة في المجتمع الفلسطيني داخل فلسطين.ولسنا هنا بالحديث عن تجارب وعلاقات فردية هنا أو هناك تقطع مع حالات العزلة، ولكننا نتطرق للتجارب الجمعية المحكومة بالعزل وخاصة للأجيال الجديدة التي لا تعرف بعضها إلا افتراضيا. وقعت هذه المناطق تحت شروط قانونية مغايرة (نظام أردني في الضفة الغربية، و نظام مصري في قطاع غزة)؛ عدا عن الفروقات بين المنطقتين من حيث المساحة وتوزيع السكان: ففي حين ان قطاع غزة يحتل مساحة اقل من 2.3 من مساحة فلسطين التاريخية ويسكنه أكثر من مليون وسبعمائة ألف نسمة في مساحة 363 كم مربع، كان عدد سكان قطاع غزة ما يقارب 80 ألف وصله خلال ساعات بعيد النكبة 190 ألف غالبيتهم من سكان الساحل الفلسطيني ومن جنوب فلسطين التاريخية. بينما مساحة الضفة الغربية خمس أضعاف قطاع غزة ويسكنها اقل من 3 مليون ولا يشكل فيها اللاجئين غالبية السكان (بعكس القطاع) الذي يصل عدد سكانه من اللاجئين أكثر من 78 بالمائة من سكان القطاع. تتمركز المناطقية او الجهوية تاريخيا في المجتمع الفلسطيني (بمعنى التعصب للمنطقة وعملية التماهي الهوياتي معها بالدرجة الأولى) حول المدن التاريخية و بسبب مجموعة من الشروط الاقتصادية والاجتماعية والتي سمحت لنوع من الاستقرار النسبي الاجتماعي والاقتصادي وسيرورات إدارية بمحددات تاريخية (متصرفية، لواء، محافظة الخ)؛ أدت إلى نشوء بؤر حضرية تلتف حولها سلسلة من النشاطات الاقتصادية والاجتماعية لمجموعات اجتماعية واسعة من القرى والبلدات المحيطة بهذه المراكز الحضرية مدعمة بنظام اجتماعي سمح لعائلات ترتبط بعلاقات مصاهرة ومصالح مشتركة وأنتج هذا التمركز تشابه انماط ثقافية واجتماعية استبطنت لدى ساكنيها بهوية اجتماعية "تميزهم" عن الآخرين. فنّمة تميّط هويّاتي ذاتي يتوافق مع تميّط هويّاتي للآخر مقارنة لتجمّعات فلسطينيّة أخرى. ويتخيّل كل سكان فضاء اجتماعي، أنّ ثمة هويّة خاصة بهم حيث ينتج المكان هويّة جماعيّة متخيّلة للأفراد المشكّلين لمجتمع معين.

مع بدء سريان الحكم الاستعماري الاسرائيلي فصلت المناطق عن بعضها البعض وخاصة ما بين الضفة الغربية وقطاع غزة، وأقام المستعمر نظم تمييز استعمارية لخلق مكونات اجتماعية جديدة (هويات مختلفة بألوان مختلفة ومزايا وممارسات مختلفة، نظام ترقيم للسيارات مختلف، أماكن خروج/دخول معينة لساكني كل منطقة على حدة معبر رفح لسكان قطاع غزة وجسر الملك حسين لاستخدام سكان الضفة الغربية وفي حالات معينة وفي فترات تاريخية محددة كان يسمح لسكان المنطقتين أن يستخدمون مطار اللد"بن غوريون"). بقي هذا الوضع قائما حتى مع بداية السبعينات حيث بدأت تنشأ علاقات على مستوى تكوين الجبهة الوطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة مما سمح لتعاون أكثر بين المنطقتين وبدأت معاودة الاتصال. ومع فتح سوق العمل الاستعماري للعمال للفلسطينيين بدأ عمال قطاع غزة يعمرون أو يلتقون بنظرائهم من الضفة الغربية وبدأت تُعاد علاقات اقتصادية وتجارية وتشاركية بين سكان المنطقتين وفي 1981 بعد رفض الفلسطينيين محاولة تسويق تبعات اتفاقية كامب ديفيد في 1978 وتبعات الاقتراحات المتلاحقة لبيعن في الضفة الغربية وقطاع غزة والتي جوهمت بالرفض من

قبل الجهات المؤثرة في المجتمع الفلسطيني ازدادت الاتصالات بين المنطقتين واستمر هذا الوضع حتى 1987 ليتوسع لشركات على مستوى الأطر الجماهيرية والثقافية الخ، على سبيل المثال ربع طلبة جامعة بيرزيت كانوا من طلبة قطاع غزة.

ثمة مجموعة من الخصائص التي تميز المنطقتين عن بعضهما البعض (ظروف سكن أكثر صعوبة في قطاع غزة من الضفة الغربية، أكثر فقرا)، تصنع سلوكيات اجتماعية مغايرة، يضاف لها عنصراً آخرًا ذا صبغة قانونية كونهم يحملون بطاقات ثبوتية مرتبطة بصناعة هويات اجتماعية وخلق أوضاع اجتماعية متشابهة: التبعية للانزوا وطاقات التموين الخ. ولظروف تاريخية مثل تأثير الإخوان المسلمين كان في قطاع غزة أكبر منه من في الضفة الغربية، ولكن هذا تراجع لصالح تدين ومحافظه أكبر بشكل عام في المجتمع الفلسطيني وهذا طبعاً متغير مع تغير الأحداث؛ لان الفلسطينيين تأثرو بالتغيرات العربية المحيطة. وميلاد الوطنية الفلسطينية كان في قطاع غزة وتجربة القطاع مع الاستعمار الاسرائيلي منذ الخمسينات كانت مختلفة²³ وأسست لعلاقة مختلفة وتخيّل للهوية الوطنية مختلف عن نظيره في الضفة الغربية فعلى سبيل المثال العلاقات الفلسطينية الأردنية؛ حيث لم تنشأ في قطاع غزة لا تيارات مصرية ولا يوجد بمصر نواب من اصول فلسطينية ووزراء، ولا سيطرة اقتصادية لهم، ولا رواتب تقاعد تصرف من الحكومة المصرية بعكس تماما في الضفة الغربية الخ؛ ولا جنسية ولا جواز سفر؛ ولم تناضل منظمة التحرير في قطاع غزة ضد تيار مصرى كما كان الحال مع التيار الاردني بالضفة الغربية. عدا هذه العوامل فان ثمة ممارسات استعمارية لعبت دورا اضافيا فكما فعل المستعمرون السابقون، قام "الاسرائيلي" بتقسيم المناطق المختلفة الى مناطق امتيازات مُستعمرية، أعاد المُستعمرين إنتاج الخطاب الاستعماري، على اعتبار أن سكان الضفة الغربية مختلفين من حيث الامتيازات التي يمنحها الاستعمار ما بين سكان فلسطيني 48 في المستعمرة الأولى مقابل القدس، وسكان القدس²⁴ مقابل الضفة الغربية، وسكان رام الله مقابل شمال الضفة الغربية، ومواصفة الضفة الغربية مقابل غزة؛ بناء على هذا المنطق المستعمري خُلقت التراتبات الاجتماعية والتي بدورها تصنع هويات متخيلة لامتيازات لذوات اجتماعية واقتصادية مختلفة تعج بتنميط ثقافوي استعماري ضمن محيال ثقافوي (culturaliste)؛ حيث تنتج مجموعة من التصورات التي نجدها في التصورات العامة المتخيلة عن المكونات الاجتماعية المختلفة، فعلى سبيل المثال وليس الحصر ينتشر في الحس المشترك العام لدى سكان الضفة الغربية (وبشكل خاص لدى الاجيال الشابة) أن ثمة خصوصية ذات طابع ثقافوي للمجتمع الغزي أي أن هناك محددات ثقافية غزية ثابتة لا تاريخية تلغي التنوع السوسولوجي. أو ان يتم استحضار قراءة جغرافية، أي اختزال التحليل السوسولوجي إلى المساحة الجغرافية، وأحيانا الى مقاربات ثقافية تتعامل بأن ثمة ثوابت ثقافية ثابتة، غير تاريخية. ويعاد إنتاج أشكال التنميط الكولونيالية، وتصبح غزة هي "غيتو"، او بالاحي "الغيتو بالمعنى التنميطي"، والغيتو بمعنى العزل الجغرافي وكذلك الغيتو الذي ينتج صورة متخيلة جماعية ضبابية عن القطاع، وفي هذا السياق نعتقد أن الاعتبارات الجهوية/المناطقية في مدينة رام الله تعود آنيا لأسباب سوسولوجية قوامها أن سكان مدينة رام الله أقلية مقارنة مغايرة و"متميزة" مقارنة بالوافدين إليها من مناطق أخرى وتظهر لنا في الآونة الأخيرة صراعات ناعمة، ذات طابع جهوى وتنميطات جهوية عالية تجاه سكان مناطق شمال الضفة الغربية وتوصيفات ذات طابع دوبي وعنصري كالنعوت التي تُطلق على الآخرين من غير الفلسطينيين (تايلنديين) للإشارة إلى العمالة الرخيصة القادمة من شمال الضفة الغربية.

²³ السقا، أباهر، قراءة سوسولوجية للمجتمع الفلسطيني في قطاع غزة، ورقة عمل جامعة بيرزيت رقم 2011/22، معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية، جامعة بيرزيت.

²⁴ انظر مقالة عن ذهنية استعمارية توردها اغارزيان عن فلسطيني القدس، اليز اغارزيان، المقدسيون وانشطار الهوية: من وحي فرائز فانون. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. عدد 82، 2010، ص 80-87.

ويتضح أيضًا من دراسات قام الباحث بها²⁵، أن ثمة شعور "بالفوقية" من قبل سكان الضفة الغربية تجاه سكان قطاع غزة، وهذا ينسجم مع تصورات متوارثة. صحيح أن ثمة خصوصية لقطاع غزة، ولكنه يبقى مجتمعًا فلسطينيًا مصغرًا يضم قرويين ومدنيين، ويشكل سكانه كافة المكونات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة، والمنحدرة من أصول جغرافية مختلفة، (مدنية وقروية وبدوية من كل فلسطين التاريخية)، وطائفية ومذهبية ودينية، كما هو حال التجمعات الفلسطينية الأخرى؛ وثمة تعقيدات على مستوى الوضع المحلي اى وجود صراعات اجتماعية بين مكونات اجتماعية مختلفة، مثل ما بين "اللاجئين" و"المواطنين". وهناك ايضا صراعات أخرى بين فضاءات التمايز الهوياتي للمجموعات المختلفة، وتظهر هذه الصراعات الاجتماعية الخفية في الأحزاب والمؤسسات والبلديات ومن خلال انتشار الزواج الداخلي²⁶ وهناك حساسيات مناطقية داخل القطاع نفسه. وكذلك ثمة حدود اجتماعية مازالت قائمة بين اللاجئين وبين المواطنين الآخرين، وفي الحقيقة جزء من هذه التمييزات تطلق على اللاجئين الفلاحين مقارنة مع اللاجئين المدنيين اى ان ثمة افضلية للاجئين من اصول مدنية. والملفت للنظر أن الفلاحة هي صفة اجتماعية وليست حالة معاشة فجل اللاجئين بقطاع غزة هم فقط من أصول فلاحية ولا علاقة لهم بالفلاحة؛ ولذا فإن الفلاحة تميظ اجتماعي وكذلك هناك تميزات أكبر للاجئين داخل المخيم عن اللاجئين خارج المخيم. إن الانعزالات المكانية لا تفسر دائما التمييز اى ان الحدود الفيزيائية التي قد تكون غائبة ومع ذلك هناك حضور للحدود الاجتماعية. لعبت الحركات الاجتماعية والاقتصادية الاخيرة دورا في تحرك الناس من المناطق الجنوبية للقطاع نحو مدينة غزة وظهور شرائح اجتماعية واقتصادية تعتمد على الاقتصاد الغير رسمي "اقتصاد الانفاق"، واثرت ذلك على تبرز شرائح اجتماعية واقتصادية جديدة ضمن منطقتي استحواذ الاطراف على المركز. وحتى ان بعض التجمعات التي كانت قري بالأساس تحولت الى بلدات مثل بيت لاهيا وبيت حانون. كثيرة هي القراءات المختلفة التي تقدم غزة وباقي مدنها كبلوك/وحدة، بمعنى غياب الفضاء الجغرافي في المكان دون (لامكاني) لأنها تلغى تنوعه مقارنة بما يقال عن الضفة الغربية بتنوعها المدني والقروي مقابل غزة المنزوعة التنوع، ولا يلعب العامل الجغرافي وكبر المساحة دورًا في ذلك، فتقدم غزة- القطاع- كمدنية على اعتبار أنها كل متماثل حتى ان سكانها يقدمون أنفسهم بأنهم من غزة ضمن آلية تقيّد ذاتي ينتجها الآخر²⁷. أي انه وبعبارة تبسيطية نشاهد من جهة سياسة الفصل الجغرافي بين الوحدتين، وتلاشي العلاقات بين المكونين يتجلى في تمييز محلي مرتبط بتكوّن الهوية الفلسطينية (Localisme Identitaire). وهذا ليس مشهدًا فلسطينيًا، بل هو مشهد عالمي.

آنيا عزّز الانقسام الداخلي بين أكبر فصليين الحساسيات الجهوية بفعل ممارسات السلطتين/ الفصيلين في المنطقتين وتساعد الخطابات الانقسامية ضمن تخیلات انها لها علاقة "بموقع الضحية" و"احتكار المعاناة" و"البطولة" و"المقاومة". ويذكر أن منع المواطنين الفلسطينيين من التظاهر مع إخوتهم في غزة فسّر بأنه امتداد للجهوية، ورأى فيه آخرون بأنه امتداد لهذه الحساسيات الجهوية الكامنة، ويتردّد في الحس العام بعضًا من تصوراتها، كالقول مثلا في الحلقات السياسية أن ما حدث في غزة لا يمكن تكراره في الضفة الغربية، لأن الثقافة هناك تلعب دورًا بذلك. وهذا يخلق توجس في الهوية الاجتماعية وتوكيد على الهويات الفرعية التي تتغذى من قلة التواصل. من الواضح ان الحرب الاخيرة

²⁵ أطروحة ماجستير قدمت للحصول على شهادة الماجستير من جامعة نانت بفرنسا بعنوان مفهوم المواطنة في المجتمع الفلسطيني 1996 بالفرنسية.

²⁶ تظهر لنا دراسة قامت بها دائرة الإحصائيات بوزارة التخطيط والتعاون الدولي بغزة في 1996 أن 46 بالمائة يتزوجون من المواطنين و 43 بالمائة من اللاجئين يتزوجون من لاجئات. راجع وزارة التخطيط والتعاون الدولي، الاسم الحالي وزارة الخارجية للسلطة الفلسطينية دراسة رقم 1 لشهر مارس/آذار، 1996.

²⁷ السقا، أباهر، قراءة سوسيولوجية للمجتمع الفلسطيني في قطاع غزة، ورقة عمل جامعة بيرزيت رقم 2011/22، معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية، جامعة بيرزيت.

على قطاع غزة دفعت سكان المنطقتين للتلاحم مجددا ومحاوله تحطى هذه العقبات الفصائلية المرتبطة بتعزيز الانقسام ولكنها بقيت حجولة ومشاركة الناس في التظاهرات بمدن الضفة الغربية مقارنة بأماكن أخرى خارج الضفة الغربية بقى محدودا. وتعززت هذه العصبية الجهوية نتيجة لممارسات نظام المحاصصة قى التعيين (للوزراء للقادة، تركيبة الفصائل) والتي تأخذ بعين الاعتبار التصنيفات المناطقية فى التعينات والتسميات وإشغال المناصب. وأخيرا أدت ظاهرة تهميش المدن الفلسطينية لصالح مدينة واحدة وهى رام الله لزيادة الإقصاء الاجتماعى والاقتصادي والثقافى للمدن الفلسطينية الأخرى ولساكنيها، بشكل يجعل عوامل الدفع تتجه للمدن الأخرى؛ ويجعل رام الله المدينة الوحيدة التي تتميز بالجذب. مما قد يؤدي إذا استمر الحال إلى استنساخ نموذج المدينة/الدولة على غرار (عمان والكويت) ومدن أخرى من الدول العربية مما يقلص التنمية الحضريّة ويوسع الفجوات بين المكونات الاجتماعية ويعزز الشحن المناطقى والانتاجات التمييزية.

أما فيما يخص العلاقة مع فلسطيني 1948، فإنه حتى 1967 قطعت العلاقات التواصلية بين الضفة الغربية وبين الفلسطينيين الذين بقوا فى أراضيهم سنة 1948، وعزل هؤلاء الفلسطينيين أيضا عن محيطهم العربى، وسمتهم الدولة الاستعمارية الناشئة بـ"عرب إسرائيل" لتفصلهم وتميزهم عن باقى مكونات المجتمع الفلسطينى، وتدرجيا تغيرت العلاقة وتحسنت بعد 1967 من خلال توطيد أنماط التشاركيات الثقافية والسياسة بالتزامن مع عملية "الفلسطنة" الى تنامى وبشكل مطرد منذ أكثر من عشرين سنة. صحيح انه تتعاضم العلاقات بين المكونات الاجتماعية على طرفى وهناك حراك جغرافى خاصة من الداخل الى بعض المدن الفلسطينية فى الضفة الغربية ولكنها ما زالت محدودة ولازال هناك حتى هذه اللحظة تصورات مبهمة عن فلسطين 1948 وحتى أن البعض يعيد انتاج التسمية الاستعمارية "عرب إسرائيل"، نتيجة لتشوه فهم الجنسية والمواطنة وتشوه الوعى الجمعى. على صعيد العلاقة مع الخارج فان هذه العلاقة معقدة ومركبة حيث ان وجود غالبية الشعب الفلسطينى فى الخارج ونظرا للوجود قيادات الحركة الوطنية الفلسطينية بالخارج لفتترات طويلة سابقا، ولدوما كانت العلاقات ما بين الداخل والخارج تتسم لانها مركبة ومتباينة لأسباب مرتبطة بثقل الداخل او الخارج حسب السياق. وبقيت هذه العلاقة تتأرجح وتتغير وفق التصورات لدى الطرفين. وكان لعودة مجموعات كبيرة من الفلسطينيين بالخارج (قيادات منظمة التحرير والعائدين) الى مناطق الضفة الغربية دور بخلق مجموعة من الحساسيات التي تراجعت لاحقا بفعل الخضوع لشروط عيش ومشاهدة وتحديدا اثناء الانتفاضة الفلسطينية الثانية (2000-2009) التي صهرت المجموعات المختلفة. ومن المنصف القول هنا بان الشعور بالشرط الاستعمارى وبوجود عدو مشترك ووجود اهداف مشتركة لعملية التحرر الجمعى للانعقاد من الاستعمار لعبت دورا فى تعزيز المشترك، وكذلك العيش بظروف متشابهة من العيش المشترك والثقافة المشتركة ادى الى صهر وتقوية الشعور بتلاشى هذه الحساسيات ولكنها تنشأ فى ظروف الازمة وتستدعى اعادة النظر فى الخطابات السياسية والهوياتية لإعادة الاعتبار لفكرة الخصوصيات تجمعها قواسم مشتركة.

الهوية الدينية

لا تظهر الهوية الطائفية فى المجتمع الفلسطينى رسميا ولا تبدو الهويات الطائفية او المذهبية متشظية او منعزلة، ولكن يمكن لنا أن نلاحظ أن ثمة تغيرات على مستوى الدلالات بمعنى الخطيبى²⁸ والتي قد تمنحنا تصورا مشروعا عن تنامى هويات دينية لدى المكونات المختلفة والتي تؤثر على تخيلات الأفراد الهويات الاجتماعية؛ كما ان تناقص اعداد المسيحيين بفلسطين وظواهر التأكيد على الهوية المسيحية باعتبارها اشكالا

²⁸ الخطيبى، عبد الكبير، الاسم العربى الجريح. تر. محمد بنيس. تقدم رولان بارت، بيروت دار العودة، 1980.

تعبيرية عن الهوية الاجتماعية وعن الخصوصية الثقافية طبعاً دون نزعها عن الهوية الوطنية الموحدة. هناك عدة عوامل لعبت دوراً هاماً يمكن أن تفسر هذه المحددات والتغيرات التي طرأت عليها: أولاً أن استمرار الصراع مع إسرائيل باعتبارها على الأقل في التصورات العامة للناس بأنها ممثلة لدين ثالث يلعب دوراً هاماً في عملية التصنيف الذاتي. ثانياً لازالت التماثلات العروبية تؤثر على تمثل الناس لهويتهم ولاعتبار المسيحيين كجزء أصيل من النسيج الاجتماعي العربي الفلسطيني؛ إضافة إلى أنه منذ تشكل الجمعيات الإسلامية-المسيحية في 1918، ومسيحيي فلسطين يُعتبرون جزءاً أساسياً في النضال ضد المشروع الصهيوني؛ وبل فاعلين أساسيين في الثورة الفلسطينية وفي حلقات النضال فيها. ولقد تشكلت الهوية الوطنية الفلسطينية باعتبارها هوية عابرة للطوائف وموحدة للتنوع و تتجاوز الهويات المذهبية. ثالثاً: قام المسيحيين العرب ومنهم الفلسطينيون في دور مركزي في النهضة العربية وفي ميلاد الحركة القومية العربية ورافعتها باعتبارهم جزءاً أصيلاً وبل مؤسساً في العروبة وبالنزعة العروبية و وادي انخراطهم التام في الحركة الوطنية الفلسطينية لجعل هذا المكون للهوية الفلسطينية الأقل حضوراً أو بالأحرى استحضاراً.

وكان هذا جلياً من خلال هيمنة عبر خطاب دهري/ علماني ولكن مع تصاعد الخطابات الدينية فاننا نجد أن ثمة هويات دينية تركز على الخصوصية لتحل تراتبياً في أعلى سلم التراتيبات للهوية الجمعية أو تتداخل معها. وآنيا لا يمكن البحث عن الهوية الموحدة في المجتمع الفلسطيني دون اللجوء إلى الدين وعلى هذا الأساس فإن الخطاب الهوياتي يستعير من الدين بعض عناصره المتمثلة في "الحقيقة المطلقة" و"العقيدة الثابتة"، لتصبح الهوية والدين متلازمان. هذا التلازم كما يقول الديلمي²⁹ مرتبطاً بكوئهما "تعبيراً عن الحقيقة المطلقة، إذ أن المنطق الداخلي المؤسس لهما يجعلهما يقدمان أنفسهما كمعطيات ما فوق-تاريخية، كماهيات لا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة". و علاقة خطابات الهوية المتماهية حول ماهية المطلق الديني قد يجعل حل القضية الفلسطينية "حلاً إلهياً" وقد يقود إلى البحث عن "هوية طهرانية خالصة" وتتموقع فوق أي هوية اجتماعية أخرى من خلال اللجوء إلى الدين بسبب تلائمه مع سياق فكري أحادي الأبعاد و أساسه الإقصاء؛ في مسعى لما يسميه الخطيبي³⁰ ما يسميه الهوية الأصلية، لأن كل هوية ترد في النهاية إلى مجتمع الإنتاج المتعين بمحدود تاريخية وزمنية مضبوطة، ولذلك فإن الخطيبي يعتبر الحديث عن هوية غير ملوثة هوية ميتافيزيقية ولاهوتية يقول "لا يمكن للهوية الأصلية التي تقوم على الأصول اللغوية والدينية والأبوية أن تحدد وحدها الهوية في العالم العربي".

وطبعاً افضت التغيرات العالمية وتساعد الخطابات الدينية ذات التأثير الكوني إلى تشكل حركات منبثقة من التوكيدات على الهويات الإثنية والقومية والدينية والمنادية بالخصوصية؛ مما أفرز توجهات كبرى للهوية والتمظهرة في مختلف أشكال التعصب؛ وفلسطين أولى المجتمعات التي تأثرت بشكل كبير وخاصة مع تراجع قوة الخطاب الدهري/ العلماني الذي ادعت منظمة التحرير بقيادته.

التشوه الهوياتي

منذ نهاية القرن الثامن عشر، بقيت التعبيرات الجماعية الهوياتية تتأرجح بين العروبية والتيارات الوطنية، لتفعل فعلها فيما نسميه "بوطننة الاقليم الفلسطيني" على قاعدة وجود هوية متعددة متنوعة تستحضر سجلاً ما على حساب آخر أو تستبدله بآخر. ومع تغير الخطاب

29الديلمي عبد الصمد، الهوية والدين، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، 74 العدد 74، ص79.

30عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، دار العودة بيروت ص 09.

الوطني الفلسطيني كرافد من الاشكال الاعتيادية لتبلور الهويات المتنوعة والمتبدلة تتغير معه الهويات الاجتماعية، والتي قد ينتج عنها فجوات بين النخب التي تنظر "للسياسة كفن للممكن" وليس "كتعبير عن الإرادة"؛ فتارة يقوم هذا الخطاب الفلسطيني على صناعة تمثيلات هوياتية مرتبطة بالجغرافيا (بالقرية وبالأرض) وتارة للتاريخ (الاستمرارية وتملك التاريخ القديم) وتارة أخرى لمشروع دولاتي قادم (سلطة وطنية على ارض محررة، دولة ديمقراطية علمانية، دولة ثنائية القومية، دولة واحدة، حل الدولتين، دولة اسلامية الخ). بالإضافة لظروف موضوعية تختلف فيها الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وعلاقة التجمعات المختلفة مع المجتمعات المضيفة يجعل وجود خطاب موحد متجانس أمرا صعبا؛ ولكنه مع ذلك فقد نجح في السابق في توحيد الفلسطينيين في هوية اجتماعية شاملة؛ عندما كان هذا الخطاب يقوم على الذاكرة المتخيّلة للفلسطينيين (ولكنها ليست خيالية بالمعنى "الأسطوري (mythique)"، بمعنى أن الغياب الفيزيائي عن الأرض الفلسطينية بالنسبة للاجئ الفلسطيني ليست خيالي لأنه يمتلك في كثير من الأحيان إثباتات ملكية الأرض التي صودرت أو هجر عنها، مثل الكوشان والطابو المتحذرة في "أماكن الذاكرة"³¹ بمعنى نورا؛ ونحن نعرف دور الذاكرة الجماعية في صناعة الهوية وخاصة في السياق الفلسطيني وكذلك المخيم لما يمثله في الدلالة الفيزيائية المثقلة عاطفيا وسياسيا عن اللجوء. ولقد تشكلت عبره ذاكرة الجيل الأول المتناقل للجيل الثاني، وهو موطن للذاكرة و مكان لصناعة الهوية وتأكيدا مرتبط بالذاكرة الجماعية الفاعلة داخل الجسم الاجتماعي³². أدت العناصر المكونة للذاكرة الجماعية الفلسطينية والتي تربط التجمعات الفلسطينية المختلفة بعضها البعض من خلال تشمل الصور المتناقلة من جيل لآخر عبر آليات واجب الذاكرة بحيث تسمح أن تستعاد صور الماضي وتحولها لثقافة³³. والمقصود هنا بالسرديات والتناقلات التي لها علاقة بما يسميه ماير³⁴: "بواجب الذاكرة"، بمعنى آليات إعادة استحواد الماضي في الحاضر. وبقيت الهوية الفلسطينية الجامعة تتمركز حول فلسطين كفكرة وكمشروع وهي التي توحدتهم مع ابقائها لخصوصياتهم الثقافية.

ولكن مع تراجع شرعية المؤسسات الوطنية في ظل أزمة "المشروع الوطني" الذي تقوده السلطة والذي لا يتناسب مع المشروع الوطني الفلسطيني الجمعي المتمثل بحق العودة مما قد يدفع الناس للتوكيد على هويات أخرى فرعية. حيث ان الفكرة الوطنية نفسها قد تم اختزالها في الخطاب السياسي الرسمي للهوية الجغرافية مقابل الهوية التاريخية. وعلى عكس منظمة التحرير الفلسطينية التي اعتبرت فاعلا أساسيا في صياغة الخطاب الوطني الهوياتي ما بعد النكبة؛ حيث لعبت ثقافة النضال دورها في صهر عناصر المجتمع الفلسطيني حيث إن الشعور بالخطر يسهل عادة بعث كوامن الوحدة، اضافة الى ان المكونات الاجتماعية المختلفة ورثت رصيذا تاريخيا عن فكرة المقاومة. وعلى نقيض ما سبق قامت السلطة الفلسطينية بإخراج ملايين الفلسطينيين من عملية التمثيل الهوياتي. وعليه يمكن اعتبار اوسلو حدثا قطيعيا وشرخا هائلا في الهوية الفلسطينية من حيث تصورات الاجيال المختلفة عن فلسطين كمركز وعملية تهميش فلسطيني الشتات وفلسطيني 1948

³¹ Nora Pierre. 1992, Les lieux de mémoire, Paris, Gallimard.

³² Nora Pierre. 1992, Les lieux de mémoire, Paris, Gallimard.

³³ EL SAKKA Abaher. 2001, « La mémoire collective palestinienne, formation d'une identité plurielle fondée sur la mémoire d'événements fondateurs » in Suaud C., Guibert P., et Moreau G., (dir), Le temps, Actes de colloque. Nantes, MSH Ange Guépin/Cens.

³⁴ MAYER Arno 1993, « Les pièges du souvenir », in Esprit, juillet .

لصالح بعض اجزاء من الشتات وتحديدًا مع مجموعات صغيرة جُلبها من رجال الاعمال. حيث ان المشاريع والوثائق المختلفة الرسمية وشبه الرسمية الى تبعت اتفاق اوسلو والتي تتصوّر بعضها عودة اللاجئين إلى أراضي السّلطة الفلسطينية و التي تود السّلطة الفلسطينية إقامة دولة عليها وهي الضّفة الغربية وقطاع غزّة و"القدس الشرقيّة"، وإسقاط حق عودة للاجئين إلى قراهم ومدنهم الأصليّة، على اعتبار أنّها "مناطق إسرائيلية" وأن ما يمكن تحصيله في ميزان القوى هو عودتهم إلى مناطق السّلطة الفلسطينية وليس إلى "إسرائيل" بدعوى وجود إجماع إسرائيلي لرفض عودة للاجئين؛ ويرافق ذلك مبادرات متجددة عن حق التّعويض والتّوطين ودمج اللاجئين في مشاريع اقتصاديّة في البلدان المضيفة وبلدان أخرى على استعداد لاستقبال لاجئين. الخ. هذا الموقف في الخطاب السياسي الرسمي الجديد له تأثير على مستوى طموحات اللاجئين وعلاقتهم بهذه المؤسّسات التي تدير مشروعهم الوطني. ولا نعتقد أنّ ثمة خصوصيّة فلسطينيّة استثنائيّة ونعتقد أنّ هذه الماحجات سيكون لها تأثير على هويّة الأفراد باعتبارهم مشكلين لنفس الفضاء الوطني.

يعيش المجتمع الفلسطيني في داخل فلسطين حاليًا أشدّ أزماته التي بدأت تعصف بالمشروعات المجتمعيّة و"بالمشروع الوطني"، وتفتح آفاقًا للتساؤلات عن الهوية الفلسطينية الشاملة لشعب مرتبط مصيره بشكل موحد لا بمصير كل مجموعة اجتماعية محددة. مع بدء سيورة التغيرات في الشارع العربي في 2011 و انطلاق الثورات على النظم الاجتماعية الاستبدادية العربية، تحركت مجموعات شبابية فلسطينية نشطت افتراضيا؛ ثم جسدت حراكها في الواقع الاجتماع باعتبارها مرآة العالم الافتراضي قوام هذا الحراك هم شباب فلسطينيون لا تجمعهم علاقات تواصل فيزيائية مباشرة مع إخوانهم العرب، رؤوا في هذه الحركات والانفضاضات العربية انبعائًا هوياتيًا جديدًا وتوكيدًا على ذات استخف بها وقزمت نفسها. هذا الثمائل المجتمعي الفلسطيني مع الحركات الاجتماعية العربية الحالية لا يُصنف ضمن استعادة الفكرة القومية بالمعنى المجرّب، ولكن يمكن القول إنه إعادة اعتبار لفكرة القومية باعتبارها ضرورة ملحة وحيويّةً لمجموعات كبيرة من أفراد الشعب الفلسطيني المنعزلة فيزيائيا عن عمقها العربي. وهي تشكل مصدر اختبار لتيارات "الفلسفة" التي اعتقدت أنّ قيام الدول الوطنية "القطرية" ما بعد الاستقلال قد قوض حلم المشروع الوحدوي العربي. ومن الواضح أنّ الحركات الحالية في الضّفة الغربية وقطاع غزّة وفي المجتمع الفلسطيني في فلسطين 1948 تعيد بلورة خطاب قومي جديد يتعايش مع الخصوصيات العربية المحلية؛ والتي من الجلي فيها أنّ قضية فلسطين كانت وما تزال هي قضية العرب الأولى؛ حتى وإن سادت خطابات رسمية مُهمشّة، لأنّ التداخل المحلي - القومي في الثورات العربية الحالية يعطي روحا جديدة متجددة. أطلق هؤلاء الفاعلين في هذه الحركات مجموعة من الشعارات الجديدة ذات المدلولات الهامة لاعادة الاعتبار لهوية فلسطينية جامعة من إجراء انتخابات المجلس الوطني رافعين للواجهة من جديد نقاشاً قديماً حول علاقة فلسطين كمرکز (رمزي وعاطفي وسياسي وحقوقوي وهوياتي) بالأطراف؛ وعلاقة فلسطين بتجمعاتها المختلفة خارج الوطن، طارحين من جديد قضية الشعب الفلسطيني باعتباره صاحب قضية واحدة وليس شعبا مختزلا يتكون من سكان المناطق التي تسيطر على بعضها السلطة الفلسطينية ومجموعات شتاتية تعيش كل منها علاقات خاصة مع كل دولة مضيضة على حده. آخر أنه امتداد للممارسات التي تعكس رغبة بعض التيارات الفلسطينية لتهمش قضية اللاجئين لصالح قضية مشروع السلطة الفلسطينية بالتركيز على سكان الضّفة الغربية وقطاع غزّة³⁵ بصفتهم سكان المناطق التي تسعى السلطة الفلسطينية اعتبار نفسها مسئولة عنهم. والزوبعة التي اثارها تصريح السيد محمود عباس للقناة

³⁵ El Sakka, Abaher. 2006. "Palestine: Diversité et modes d'identification des conceptions du retour." *Revue Diasporas Histoire et société*, Laboratoire, no.8: 90-105.

التلفزيونية الاسرائيلية العاشرة تاتي اثارها كجزء من غياب الثقة وردة فعل الناس كما يمكن ان يفسر هذا الارق الهوياتي حول حق العودة بين المواقف الرسمية وبين تصورات الناس. ومنذ فترة اطلقت دعوات لإعادة انتخاب المجلس الوطني وتفعيله. وفي الحراك الاجتماعي الاخير رفعت أيضا شعارات "إنهاء المفاوضات" و"إسقاط أوسلو" ووقف التنسيق الأمني مع "إسرائيل"، ومناهضة التطبيع ومقاطعة "إسرائيل" فضلاً عن الشعار الرئيس "إنهاء الانقسام". وأعطت الحرب "الاسرائيلية" الاخيرة على غزة في تشرين ثاني 2012 زخماً هوياتياً جديداً يتجاوز الفصل الجغرافي وهذا يدل على ان الهوية كما قلنا سابقاً متغيرة ودينامية ومتبدلة. وتؤسس بالوقت ذاته لتساؤلات نقدية مجتمعية عن فشل وتخط القيادات السياسية وفشلها، مقابل تغير الحقائق على الأرض لصالح المشاريع الاستيطانية الإسرائيلية وسياسات الأمر الواقع التي تفرضها إدارة الاستعمار.

يشعر الفلسطينيون اليوم بوجود غياب لمؤسسات وطنية جامعة، وغياب لبرنامج وطني، وبل لغياب هوية وطنية جامعة. وقد جرى تشويه للخطاب الفلسطيني الرسمي عن الواقع الاستعماري من خلال تشويه للذات الفلسطينية وتشويه علاقة الاجيال الجديدة لفلسطين، وبدأت تظهر استخدامات "الجانب الاخر" و"الطرف الاخر" عند الحديث عن الاستعمار (الاحتلال) - علاوة على التشويه المتجذر لتوصيف الاستعمار وعنوانته بالاحتلال وتعبيرات من "رفع لجنين"، وتشويه لخارطة فلسطين في المناهج الفلسطينية وفي وسائل الاعلام؛ وهناك عشرات الامثلة التي لا متسع هنا لاستحضارها كافة و نكتفي بهذه الامثلة فقط؛ فيامكاننا التمثل من نموذج هوياتي جديد يجعل "المسخن" "الاكلة الوطنية الفلسطينية" التي تختزل المطبخ الفلسطيني ليتشابه مع صورة اختزال الجغرافيا الفلسطينية على منطقة وسط الضفة الغربية وشمالها والتي تنسجم مع مشروع اوسلو والتي تعتبر فيها هذه الاكلة هي الاكلة الشعبية بعكس شمال فلسطين وجنوبها.

خاتمة

الأرق الهوياتي الذي قدمت له في ورقتي، انعكس على التجمعات الفلسطينية المختلفة، وعلى شعورهم كجماعات تحمل هويات خاصة أو تمايزة عن المجتمعات الكبرى. هذا التمايز الهوياتي هو نتيجة لعدة عوامل، منها: الفضاء الجغرافي والاجتماعي وأثره على تكون الهوية الاجتماعية الفلسطينية، وهشاشة الهوية الوطنية (كأي هوية وطنية أخرى)، وغياب مشروع اجتماعي يلغي التمايز الجهوي والحائلي والأزمة غير المسبوقة للمشروع الوطني الفلسطيني بصورته الحالية. وأخيراً، الصور النمطية للمجموعات الاجتماعية عن بعضها البعض. وفي بحثي ابتعدت عن مقاربات التطهيريون والمثاليون الذين يرون أن ثمة ثنائيات، والتحدى هنا هو التمثل في كيفية خلق المتجانس من اللامتجانس، والتنوع الموحد. ولأن الأمر لا يتعلق بشك مطلق في الهوية وعناصرها المؤسسة بل لضرورة إخضاعها للمشارك؛ فالسياق الفلسطيني و وقوعه تحت الشروط الاستعمارية، و صيرورة التحرر و إمكانية تشكيل عناصر جديدة إي تخليق هوية منفتحة بعناصر متطورة ومواكبة لإشكاليات الاختلافات المكونة للهوية الفلسطينية الجامعة. ولأن الشروط الاستعمارية كانت وما زالت قائمة عبر ممارسات الاستعمار الإسرائيلي، التي تتعاضد، ولأن ممارساتها الاستعمارية تتناقض مع وجودها كمجتمعات غير مستعمرة، فإن هذه الشروط ستشكل عامل موحد إلا اذا تم إسقاط مجموعات اجتماعية كبيرة من المشروع/ الاجتماعي السياسي القادم.

من المؤكد ان ابن خلدون يحدثنا عن "العصابات" كأساس للانتظام الاجتماعي، ولكن بمعنى التضامن الاجتماعي في جسد اجتماعي، و عليه يصبح السؤال السوسولوجي مشروعاً؟ مستعيرين فكرة قديمة لدوركايم³⁶ "كيف يقيم جمع من الأفراد مجتمعاً؟ وكيف ينجزون الشرط الضروري - أي الوعي - لوجودهم الاجتماعي؟ بالمنطق الدوركايمي وكيفية الانتقال من (التضامن الآلي = mécanique) و (التضامن العضوي = Organique). ففي النمط الأول يكون الأفراد متشابهين في مشاعرهم وأحاسيسهم، ويشتركون في نفس القيم، كما أنهم متفقون على نفس المبادئ والأشياء المقدسة؛ ويطغى عليهم - نتيجة ذلك - التجانس لأنهم لم يتباينوا ولم يتغايروا بعد. لكن، وبفعل عوامل الكثافة الاجتماعية وأنماط الاتصال والتقسيم الاجتماعي للعمل، يحدث ذلك الانتقال من النمط الأول أو الحالة الآلية إلى حالة أكثر تطوراً وتعقيداً، وهي الحالة العضوية أو ما يصطلح عليه دوركايم بـ "التضامن العضوي الذي يأتي تضامن الأفراد وتماسكهم فيه، نتاجاً لتباينهم وتعبيراً عن هذا التباين في نفس الوقت". مما قد يؤدي ذلك الى استشراف هذا اللجوء إلى الهوية الدينية أو المذهبية عند تآكل الدولة الوطنية وتآكل ايديولوجيتها الموحدّة لمواطنيها لإبعادهم عن الانحصار بـ "هوياتهم" الصغيرة التي نشأوا عليها. وقد يودي الى نكوص الجماعات الاجتماعية إلى هوياتٍ وانتماءات أولية (تقليدية). فمع مشروع اوسلو هناك اسئلة مشروعة عن من هو الفلسطيني هل هو الفلسطيني الذي يقيم علاقة حنينية نوستالجية لأرضه وبيته اى حنين جغرافي؟ ومن هو ليس كذلك؟ هذه الأسئلة تدور من أين يمكن لخطاب الهوية أن ينطلق؟ وهنا يصبح الأمر أكثر تعقيداً حينما نسقط هاته الأسئلة على حالة الهوية الفلسطينية؟ وعليه فان خطاب الهوية في المجتمع الفلسطيني أزمة هوية أم أزمة معنى؟ والهوية الفلسطينية كحال الهويات الاخرى يجب إدراكها من خلال البعد الدينامي للهوية باعتبارها ذات محددات داخلية وخارجية. ولا نحاجج هنا بوجود اطار جامد دولاتي مستدكرين فوكو³⁷ الذي يعتبر "النصوص والأقوال" كما تعني مجموع كلماتها ونظام بنائها وبنيتها المنطقية أو تنظيمها البياني، أو نظام تعبير مقنن ومضبوط) كما يعني أحياناً (الميدان العام لمجموع العبارات، ومجموعة متميزة من العبارات أحياناً أخرى، وممارسة لها قواعدهما، تدل دلالة وصف على عدد من معين من العبارات وتشير لها أحياناً ثالثة)، إنه (في واقعه المادي مكون من أشياء منطوقة ومكتوبة) أو (مجموعة من الأدلة من حيث هي عبارات وبوصفنا قادرين على أن نعين أنماط وجودها الخاصة)، فالخطاب لا يتحدد إلا بوصفه منظومة من القواعد التي تميز مجموعة من المنطوقات التي تنتظم داخل الممارسة الخطابية. واذا تأسس إحساس بفقدان الهوية يستدعى حلولاً لمشاكلها الآنية عبر رسم خطوط العودة إلى الماضي لجلب حلول لمازق الحاضر.

استنتاجات

-أزمة خطابات الهوية في المجتمع الفلسطيني تتمثل في عملية التبسيط الشديدة التي يتعرض لها مفهوم الهوية نفسه، رغم شدة تعقده وإحالاته على عوالم يستحيل تصنيفها واختزالها من خلال الثبات. لا لتحصير في منطق الثنائيات المتصلب الذي قد يؤدي إلى التمجيد والنرجسية أو إلى التعصب والعنصرية.

³⁶ هذه فكرة قديمة لدوركايم نشرت سنة 1893 في كتابه الشهير De la division du Travail عن تقسيم العمل للاستزادة انظر لطفى ادريس، اميل دوركايم والتصور الانقسامى للمجتمعات التقليدية، الحوار التمدن، 2010.

³⁷ انظر قراءة عزيز مشواط لفوكو في أزمة الهوية في العالم العربي، أزمة معنى ام أزمة حضارة؟. Michel Foucault , 1971. L'Ordre du discours, Paris, Gallimard.

- يحتاج الفلسطينيون للبقاء موحدين بهويتهم تركيزهم على الهوية القائمة على الوطن وليس على الشكل السياسي لإقامة دولة على جزء من وطنهم؛ أي يمكنهم التمييز بين وطنهم وبين خطاب إقامة دولة فلسطينية على جزء من فلسطين التاريخية.
- التعامل مع مشكلة الهوية بنوع من المرونة المعتمدة على البحث عن المشترك والإيجابي بما يحقق مصلحة الجميع؛ وفي الحالة الفلسطينية بقاء الرابط المشترك للفلسطينيين في كل أماكن تواجدهم.
- لأن الهوية الشخصية هي هوية اجتماعية فإن الشخص مرغم على الانطباع والتكيف مع الآلة الاجتماعية التي تجبره على تغيير الأقنعة وعلى تلمص مختلف الأدوار والتي تتغير بتغير الظروف والأحوال، ولأن الشخص مطالب بضرورة التلاؤم مع الدور الموكل إليه فحسب بل التفنن والإخلاص في تأديته. ولذات السبب ينتقد الكثيرون ومنهم فوكو والذي ينعت هذه الهوية المصطنعة بـ "أخلاق الحالة المدنية" لأنها تؤدي إلى ضياع هوية الشخص وتفقد أصالته وتميزه وتطوق وجوده وتفرضه من طاقاته وإمكاناته الإبداعية³⁸. لا أن تصاغ هوية فلسطينية قائمة فقط على الانسجام مع مشروع سياسي لا ينسجم مع طموحات غالبية الفلسطينيين.
- أن معالجة هذا الخلل الذي لحق الذات لا يمكن تجاوزه إلا إذا استعادت الهوية الوطنية معناها الشامل، أي مكانتها باعتبارها رابطاً جامعاً لا يمكن تجاوزه، ولا يتم ذلك إلا بوضعها داخل المنظومة التعليمية وبتشاركية الهيئات الفلسطينية المختلفة؛ وإعادة الاعتبار لفكرة وجود شعب واحد، وعدم استمرار التعامل معها على أنها ظاهرة فولكلورية أو نوستلجية/حنينية صالحة لكتابة بعض الأغاني و الروايات وللبكائيات أو الاستهلاك المحلي، والحد من ازدواجية السياسات الهويةية (التأكيد على الثوابت في العلن وإسقاطها في المحافل الدولية).
- الهوية الفلسطينية كأي هوية اجتماعية تركز على التجانس القائم جزئياً على التماثل وقد تعارض التمثلات الهويةية مع بعضها البعض ولذا يجب إيجاد اليات تسمح بالتفاف الفلسطينيين حول مشروع وطني شامل.
- العمل على بناء هوية وطنية فلسطينية تقوم على استحضار التراث الاجتماعي والثقافي والسياسي الذي أنتجته كافة الفئات الاجتماعية المشكّلة للبناء الاجتماعي الفلسطيني والذي تراكم عبر السنوات الطويلة، ودججه على أساس التجربة المشتركة الإيجابية لكافة الفئات.
- تبني سياسات رسمية/حكومية تقوم على مبادئ الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وسيادة القانون وبناء المؤسسات التي تعتمد معايير مغايرة، والابتعاد عن الفئوية والجغرافية مما يسمح لجميع الفئات الانخراط في التمثيل الهويةي.
- دمج مفاهيم الهوية الوطنية الجديدة في مناهج التربية الوطنية والمدنية على مستوى التعليم الأساسي والثانوي والجامعي وتصحيح الخلل القائم على تشوه الجغرافيا والتاريخ في الوثائق الفلسطينية الرسمية حيث أن المناهج الفلسطينية هي أولى تعبيراتها.
- وضع سياسات تساعد على رفع مستوى الاندماج الاجتماعي لكافة فئات المجتمع الفلسطيني والتشاركية في صنع القرارات المصيرية والعمل على كسر احتكار مجموعة صغيرة لاتخاذ القرارات المصيرية، وكسر الحصار والتهميش الحاصل لقطاع غزة والشتات وفلسطيني 1948 فيما يخص القرارات المصيرية والتي تؤثر على الهوية الفلسطينية وتعميق التجربة الديمقراطية باعتبارها تجربة تساعد على تحقيق مبدأ العدالة وتعمق المشاركة لكافة المواطنين.

³⁸ انظر بالعربية سؤال الذات وحقيقة الهوية لمحمد القرافلي وقرأته لميشل فوكو. M. Foucault, *L'archéologie du savoir*, Paris, Éd. Gallimard, 1969, Coll.

-الحد من ظاهرة تهميش المدن الفلسطينية لصالح مدينة واحدة رام الله مما يعنى الاقصاء الاجتماعى والثقافى والسياسى و اقامة حوار وطنى عن التمييز الايجابى والمحاصصة ونظام الكوتة من اجل تصويب الممارسات الاجتماعية ذات الطابع المناطقى والفئوى الخ.

كلمات مفتاحية: هوية اجتماعية، هوية تطوعية، تشظى هوياتى، هويات فرعية، تشوه واقع استعمارى، شرح هوياتى.

المراجع:

باللغة العربية:

- المجمّع الوسيط الصادر عن مجّمع اللّغة العربيّة، القاهرة، ط3، 1998.
- ابن خلدون، المقدمة، دار سيلدار، تونس، 2006.
- الخطيب، عبد الكبير، الاسم العربي الجريح. تر. محمد بنيس. تقديم رولان بارت، بيروت دار العودة، 1980.
- التريكى، فتحي، "لنتفلسف حول العيش سويا". تر. محمد على الكبسى. مطبوعات كرسي اليونسكو للفلسفة وتبرالزمان، تونس 1998.
- القرافلى محمد، سؤال الذات وحقيقة الهوية، مجلة انفاص الالكترونية.
- ادموند مارك ليينانسكى، الهوية والاتصال، ترجمة شهرستان مارى، ونشرت في مجلة تحولات، في العدد، 6، 2005.
- الشقاقى، خليل، العلاقات السياسية والإدارية المستقبلية: الضفة الغربية وقطاع غزة، القدس، 1994.
- هلال، جميل، النظام السياسي بعد اوسلو، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية- مواطن، رام الله، 1998.
- هلال، جميل، الطبقة الوسطى الفلسطينية، بحث في فوضى الهوية والمرجعية والثقافة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2006.
- تراكى، ليذا وآخرون، الحياة تحت الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة، الحراك الاجتماعي والكفاح من اجل البقاء، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2008.
- ادريس لطفى، ايميل دوركانم والتصور الانقسامى للمجتمعات التقليدية، الحوار التمدن، 2010.
- مشواط عزيز، ازمة الهوية في العالم العربي ازمة معنى ام ازمة حضارة؟، الموقع الالكتروني منبر الحرية.
- حوار لمحمد الجويلي مع عادل الحاج سالم بمجلة ألوان "لا بدّ من تمييز إيجابي لفائدة السود في المجتمعات العربيّة"، 2009.
- الديالمي عبد الصمد، الهوية والدين، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، 74 العدد 74.
- السقا، أباهر، دراسة سوسولوجية عن الهوية الاجتماعية للشباب الفلسطيني في مخيمين فلسطينيين، معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية، جامعة بيرزيت، 2011.
- السقا، أباهر، قراءة سوسولوجية للمجتمع الفلسطيني في قطاع غزة، ورقة عمل جامعة بيرزيت رقم 2011/22، معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية، جامعة بيرزيت.

باللغات الأجنبية:

- ANDERSON Benedict, Imagined Communities : Reflections on the origin and spread of nationalisme, Revised ed, London, 1991.
- BOURDIEU Pierre, La représentation politique : éléments pour une théorie du champ politique, Actes de la recherche en sciences sociales, n° 36-37, février-mars 1981.
- Levi-strauss, Claude, Identité : seminaire de college de France, PUF, Qaudriage, 1977.
- ERNEST Renan Qu'est-ce qu'une nation ? Paris, Presses Pocket, 1992.
- FANON Frantz, Les damnés de la terre, Paris, Gallimard, 1 968.
- GELLNER Ernest, Nations and Nationalism, Oxford, Blackwell, 1983.

- HOBBSAWM Eric, Nations and Nationalism since 1870. Myth, Reality, Cambridge, Cambridge University Press, 1990.
- KHALIDI Rashid, Palestinian Identity : The Construction of Modern National Consciousness, New York, Columbia University Press, 1997.
- NOIRIEL Gérard, Etat nation et immigration, vers une histoire du pouvoir, Paris, Belin, 2001.
- Michel Foucault , 1971.L'Ordre du discours, Paris, Gallimard.
- Michel Foucault , L'archéologie du savoir, Paris, Gallimard, 1969.
- ZARIFIAN Philippe, l'émergence d'un peuple monde, Paris, PUF, 1999.
- Dubar, Claude. 2000. la crise des identités l'interprétation d'une mutation ; le lien social. Paris: press universitaires de France.
- Edmond Marc Lipiansky, identité et communication, Broche, paris, 2005.
- El Sakka, Abaher. 2006. "Palestine: Diversité et modes d'identification des conceptions du retour. "Revue Diasporas Histoire et société, Laboratoire, no.8: 90-105.
- El Sakka, Abaher, "La mémoire collective palestinienne, formation d'une identité plurielle fondée sur la mémoire d'événements fondateurs "dans C. Suaud, P. Guibert et G. Moreau (dir), Le temps, Actes de colloque. Nantes, MSH Ange Guépin/Cens, 2001, p. 45-57.
- Halbwachs, Maurice. 1950. La mémoire collective. Paris: Albin Michel.
- Hobsbawm, Eric. 1990. Nations and Nationalism since 1870. Myth, Reality. Cambridge: Cambridge University Press.
- Nora, Pierre. 1992. Les lieux de mémoire. Paris: Gallimard.
- Weber, Max. 1971. Economie et Société. Paris: Plon.